الاندلسيون بالمغرب الأقصى
و دورهم الاقتصادي

كانت ظاهرة الأندلسيين المهجرين من بلادهم إلى المغرب الإسلامي ذات أثر كبير على التاريخ الحضاري للمنطقة؛ وخاصة بلاد المغرب الأقصى؛ باعتبار كثرة الهجرة الأندلسية إليه. وقد مرت هذه الهجرة بثلاث فترات: فترة العصر الوطاسي، وفترة العهد السعدي الأول (عصر الازدهار)، وفترة العهد السعدي الثاني (عصر الاضطراب). وكان استقرارهم واسعا في الساحل والداخل والجنوب؛ كسوس الذي استقرت به جالية أندلسية بتارودانت، ولا زالت بعض أسماء أحياء المدينة أندلسية (درب الأندلس)؛والرباط وسلان وفاس ومكناس ومراكش (حي رياض الزيتون)، وتطوان، وشفشاون وآسفي.

- **دور الأندلسيين في تاريخ المغرب**:

ترافقت الهجرات الأندلسية مع فترة الأزمات الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب الأقصى، ومجاعة وأوبئة، وقحط وغلاء، ونقص ديمغرافي بين. وقد اضطرت الأوبئة في العصر الوطاسي بعضهم إلى الرجوع للأندلس، رغم فتاوي العلماء في وجوب الهجرة (الوانشريسي والمغراوي).

رغم ذلك جلبت الهجرة شخصيات لعبت دورا هاما في تاريخ المغرب الحديث، ففي جهاد النصارى خاصة ظهر أحمد العطار، صاحب الهجوم على أزمور (1521م)، ومفاوض البرتغاليين ومنشئ حصن تازوطا لمهاجمة الإسبان. ومن الأسر المذكورة في ذلك أسرة أعراص ذات الدور في الجهاد البحري والتجارة، ومنهم قائدها على أعراص المتحالف مع السعديين ، المكلف بتحرير مليلية.

ومنهم أيضا، على المنظري باني تطوان، الحاضر ة الأندليسة الفريدة في المغرب؛ وكذا سعيد بن فرج الدغالي، لعب دورا هاما في التمكين لعبد الملك المعتصم، وأصبح واليا على السوس والرباط، وشارك في محاولة انقلابية على المنصور. ولعب كل من محمود باشا وأخوه دورا رئيسا في الحملة على السودان الغربي، وكان لهم اليد العليا في جيش عبد الملك المعتصم، ثم انسحبوا من الجيشية تدريجيا بعد المنصور.

كما كان للجالية الأندلسية في حوض أبي رقراق دورها في التاريخ السياسي للمغرب الأقصى، وقد ساندت العياشي في جهاده، وأسست ثلاث جمهوريات مستقلة في بعض أوقاتها، في كل من سلا والرباط والقصبة. وساهمت كثيرا في الجهاد البحري مع أتراك الجزائر، وغزوا إلى إنجلترا وارلندا واسلندا، وكان أسطولهم في أوجه مؤلفا من ثلاثين إلى أربعين وحدة، ووصل سنة 1637 الستون وحدة.

وأما دورهم الاجتماعي فكبير، مؤثر على المغاربة في مستويات عدة، وقد ساهمت سياسات بعض الملوك في انتشاره، كما في مراكش حينما نقلهم الغالب السعدي إليها، وكانوا نحوا من أربعة عشر ألفا، وأسكنهم جانبها الغربي، وأقطعهم أراضيها، ثم أدخلهم الجيش عنوة، وألف منهم فرقة جيش النار(1563م). كما شاركوا بقوة في الحياة الدينية والعلمية، فظهرت منهم طائفة المحمدية أتباع الفقيه أبو عبد الله محمد الأندلسي الظاهر بمراكش، ذات البعد الديني والسياسي.

- **دور الأندلسيين الاقتصادي**:

يقول ابن غالب في هجرة الأندلسيين ودورهم في تاريخ المغرب الحديث: "فأما أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه، وداخلوا أهلها وشاركوهم فيها،؛ فاستنبطوا المياه، وغرسوا الأشجار، وأحدثوا الأرحي الطاحنة بالماء، وغير ذلك. وعلموهم أشياء كثيرة لم يكونوا يعلمونها، ولا رأوها؛ فشرفت بلادهم وصلحت أمورهم، وكثرت مستغلاتهم، وعمت الخيرات... وأما أهل الحواضر، فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجباة الأموال، والمستعملون في أمور المملكة، ولا يستعمل بلدي ما وجد أندلسي. وأما أهل الصنائع؛ فانهم فاقوا أهل البلاد، وقطعوا معاشهم، وأخملوا أعمالهم، وصيروهم أتباعا لهم، ومتصرفين بين أيديهم، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة، وفرغوا فيه أنواع الحذق والتجويد، ما يميلون به النفوس إليهم، ويصير الذكر لهم...". وفي الكلام كفاية تغني عن وصف الحال.

- **الفلاحة**: ساهموا في تطوير بعض تقنيات الري، فأنشؤا عدة نواعير خاصة بفاس؛ وبمراكش بمد عدة قنوات من نهر تانسيفت، واستغلوا الاقطاعات التي منحتهم الدولة في الزراعة. واشتهروا بغرس أشجار الزيتون، بأقطار المغرب العربي كله. وتحسينهم لإنتاج الخضر والفواكه، وتربيته لدودة القز. كما واهتموا بالجانب النظري؛ فألف محمد بن علي الشطيبي الأندلسي رسالة في الفلاحة، اعتمد فيها على ما تقرر عند علمائها الأندلسيين (ابن بصال، ابن ليون..) وعلى تجاربه الخاصة لاستخلاص ما يلائم طبيعة بلاد المغرب.

- **الصناعة**: فقد حملوا معهم الصناعة الحرفية إلى المغرب، وقد ذكر ابن سعيد بعضا منها، من ذلك ما كان يصنع بألمرية وملقة ومرسية من الوشي المذهب، والبسط من الثياب المحررة الصنف المعروفة

بالملبد المختم، ذو الألوان العجيبة. والأسرة المرصعة، والحصر الفتانة الصنعة. وآلات الصفر والحديد من السكاكين والأقماص المذهبة. وغير ذلك من آلات العروس والجندي، والزجاج الغريب العجيب، والفخار المزجج المذهب، وغير ذلك. ومما حملوه من الصناعات "صندوق العروس" بالرباط وتطوان، وكلن يصنع من عود العرعر الصلب في هيكل غاية في الكبر. وذكر أن عددا من ثريات مساجد فاس كان من إبداعهم، وأذانها مأخوذة من نواقيس كنائس اسبانيا، حملوها معهم.

وبرعوا أيضا في الصناعة المعدنية؛ فذكر الوزان انهم كانوا المشرفين على صناعة الأسلحة والذخيرة بفاس. ونقلوا هذه الصناعات إلى المغرب وطوروها به، فكانت لهم مناهج خاصة في: دباغة الجلود، وصناعة الحرير والصوف. وهيمنوا على بعض ضروب الصناعة، وأشار الوزان إلى أن تجار الأقمشة الصوفية بفاس كانوا كلهم أندلسيون.

أما البناء، فعرف تطورا مهما بولوجهم، فالطراز الأندلسي لم يعد يقتصر على مدن الشمال، بل تخطى الأطلس. ودخلت الفسيفساء، ونقش الحجر والجبس والخشب، والفستقيات المائية الدور المتوسطة. ولاحظ مارمول أن أحسن المدن ما جمل وزين بتراث الأندلسيين، وذكر لويس فني أن عامة عمارة مكناس في القرن الثامن عشر كانت على الطراز الأندلسي.

بل وحملوا معهم تنظيماتهم الاقتصادية؛ فكانوا منتمين في طوائف حرفية سماها الوزان "نقابات". وفي العموم قد ادخل الأندلسيون معهم كل ما كانوا يعرفونه من أفانين الحضارة وصنوفها: " وقد ظهر في دولة المنصور السعدي الشريفة من العلم والحرف المهمة التي لم تكن قبل في المغرب أصلا".

- **اللباس**: وكان لهم الأثر الكبير في صناعة الباس، وطريقة اللبس المغربية، وحافظت بعض ألبستهم على أشكالها وأسمائها، في حين تغيرت أخرى، ومنها:

السلهام: تعرف بالبرنس عند الأندلسيين، والكلمة مأخوذة من كلمة "Zulame" القشتالية.

البلغاء: من أصل اسباني حمله الاندلسيون معهم.

البدعية: لم تكن اللفظة مستعملة بالأندلس بل عرفت بالصدرية.

البنيقة: ما يزال اللفظ مستعملا بالمغرب والجزائر، وهو منديل تضعه النساء على رؤوسهن، لعله دخل بعد سقوط غرناطة لأنه من لباس الأغنياء.

الشاشية: من الألبسة الأندلسية المدخلة، قلنسوة حمراء كان يضعها رجال المخزن والتجار والطلبة، وشاشية اليهود سوداء.

- **التجارة**: ساهم الأندلسيون في ميدان التجارة مساهمة قوية، خاصة أنهم كانوا روادا للبحر أكفاء، بحوض أبي رقراق خاصة، حيث امتهنوا الجهاد البحري ومعه التجارة، فلم يعقهم الجهاد من ربط علاقات تجارية مع الأوربيين، إذ كان عديدهم يتاجر بمصب أبي رقراق، حيث أصبح ميناؤه الأول بالمغرب، إلى أن يرثه مينائي أسفي وأكادير منذ القرن السادس عشر.

وسجل لنا بعض الكتاب الأوربيين من رحالة وغيرهم(هارسون) مجيء سنة 1630 ثلاثون سفينة أجنبية(انجليزية وهولندية) خلال شهر وستة عشر يوما. ورغم امتناع فرنسى من شراء البضائع المغتنمة من الجهاد البحري، لكن الأندلسيون سوقوها إلى ليفورن وجنوة وبيزة، وعقدوا مع الأوربيين وغيرهم اتفاقيات ومعاهدات ذات ضوابط تجارية. وقد كانت الشركة البربرية البريطانية من اهم الشركات التجارية الأوربية.

ولكل هذا أصبح الأندلسيون الساحليون قوة تجارية لا يستهان بها، إذ كان مدخول سنة واحدة من الجهاد البحري يعطي لديوان سلا أكثر مما كان يعطيه مدخول الضرائب السنوية في مجموع مملكة المنصور الذهبي.

وصفوة القول أن التأثير الاندلسي على اقتصاديات المنطقة وخاصة المغرب الأوسط كان ذا سلطان قوي في جوانب عدة من العمران الحضاري المغربي في عصره الحديث.

اهـ.

- **المصادر و الراجع**:

- أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي ، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تـ عبدالكريم كريم، وزارة الأوقاف.
- ابن عسكر الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تـ محمد حجي، دار المغرب، الرباط، 1977م.
- ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، تـ محمد الأحمدي أبو النور،
- الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تـ جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1418-1997.
- عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، ط. الثالثة، 1427-2006م.
- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج2 من المرينيين إلى السعديين، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1420-2000.
- عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، 1988.